مكانة

السنة في الإسلام

طبع بإشراف
وقف السلام الخيري
الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

نستقبل ملحوظاتكم وطلباتكم على العنوان التالي:
وقف السلام الخيري
المملكة العربية السعودية - الرياض - حي السلام - مقابل بوابة مقبرة النسيم
ص.ب ١٢٤٧٢٤، الرمز البريدي ١١٧٧١، هاتف ٢٠٩٠٣٠٠ - ٢٠٩٠٥٠٠ - ٢٠٩٠٢٠٩ - تحويلة: ١٤١، ١٤٢، فاكس: ٢٠٩٢٠٩٢
E-mail: info@assalam.ws

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . وبعد : فقد أذنت لوقف السلام الخيري بالرياض
في طباعة محاضرتي التي هي بعنوان : (مكانة السنة في الإسلام)
رجاء أن يكون فيها شيء من الفائدة ورجاء الأجر من الله
للجميع . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

كتبه :
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

في ١٤٠٥/٦/٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمّد خاتم النبيّين، القائل: « **ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه** »[1]،

أما بعد:

فإن الله ﷻ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا، وسراجًا منيرًا على حين فترة من الرسل، ودروس من السبل، فبصّر به من العَمَى، وهدى به من الضّلالة، وبلغ البلاغ المبين، حتى ترك أمته على البيضاء، ليلها كنهارها، وقال عليه الصلاة والسلام: « **إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي** »[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: « **فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم**

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٣٠).

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ. (٢/ ٨٩٩/ ح١٥٩٤).

وكل بدعة ضلالة»[1].

إن موضوع حديثنا إليكم في هذه الجلسة المباركة - إن شاء الله - هو حول السنة النبوية ومكانتها في الإسلام.

والسنة في اللغة تطلق ويراد بها الطريقة، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[فاطر:٤٣] أي: الطريقة أو العادة التي جرى عليها حكم الله ﷻ في المكذبين المخالفين للرسل، فسنة الله فيهم أن يعاقبهم ويأخذهم بالعذاب لما خالفوا الرسل.

وقال ﷺ: «لتتّبعن سنن من كان قبلكم»[2] يعني: طرق من كان قبلكم من الأمم، فهذا يدل على أن السنة يراد بها الطريقة في اللغة.

أما في اصطلاح علماء الشرع من محدثين وأصوليين

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٤/ ٢٠/ ح٤٦٠٧) والترمذي في الجامع (٥/ ٤٤/ ح٢٦٧٦) وابن ماجه في السنن (١/ ١٥/ ح٤٢) وأحمد في مسنده (٤/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٧٤/ ح٣٢٦٩) ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٤/ ح٢٦٦٩).

وفقهاء؛ فالسنة يراد بها: ما ثبت عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، وبعضهم زاد: أو صفة، فما ثبت عن النبي ﷺ من هذه الأمور فهو سنة الرسول ﷺ، هذا تعريفها عند علماء الشريعة.

أما أهميتها ومكانتها في الإسلام، فمكانتها عظيمة ومنزلتها جليلة، لأن سنة النبي ﷺ تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن، لأن أول أصول الدين كتاب الله ﷻ الذي أنزله على رسوله ﷺ بالهدى والبيان.

والأصل الثاني: سنة النبي ﷺ، وما بعدهما من أصول الأدلة راجع إليهما، فأساس أصول الأدلة في الإسلام هما هذان الأصلان العظيمان؛ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولهذا أوصى بهما رسول الله ﷺ فقال: « **إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب الله وسنتي** »[1]، وذلك لأن السنة النبوية وحي من الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]، فالسنة وحي من الله أوحاه إلى رسوله ﷺ،

(١) تقدم تخريجه.

والرسول ﷺ بلغ هذا الوحي للناس فيما أمر به ونهى عنه، والسنة أيضاً تبين القرآن وتفسره وتوضحه، فتفصل مجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه، وقد تنسخ بعض أحكامه، وقد تأتي بأحكام زائدة على ما في القرآن.

ومن هنا تتجلّى لنا أهمية السنة حيث إنها تفسير للقرآن وتبيين له كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، فالله أنزل القرآن ووكل بيانه إلى رسوله ﷺ، وهذا البيان هو: السنة،كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤] فهذه الأمة جاء رسولها ليبيّن لها، فمن أمثلة هذا البيان أن الله ﷻ أمر بالصلاة في القرآن لكنه لم يبيّن عدد ركعات الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، بل أمر بها أمراً مجملاً كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[التوبة:٥]،

فالآيات في هذا كثيرة، وكذلك أمر بإقام الصلاة لكنه لم يبين مواقيتها، وإن كان سبحانه ذكر المواقيت ذكرًا مجملاً كما في قوله ﷻ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[الإسراء:٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[الروم:١٧-١٨] فهذا ذكر للأوقات لكنه ذكر مجمل، والذي بين هذا الإجمال سنة الرسول ﷺ: فقد صلى بأصحابه وقال: «صلّوا كما رأيتموني أصلي»[1]، فبين ﷺ بهذا أعداد ركعات الصلوات ، فنصلي كما صلى عليه الصلاة والسلام ؛ نصلي الظهر أربع ركعات، وفي السفر ركعتين قصرًا، والعصر أربع ركعات وفي السفر ركعتين قصرًا، والمغرب ثلاث ركعات في السفر والحضر ولا تقصر، والعشاء أربع ركعات في الحضر، وركعتان في السفر قصرًا، والفجر ركعتان في الحضر وفي السفر، وأما من حيث المواقيت فقد بين الرسول ﷺ المواقيت إذ

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٢٦/ ح ٦٠٥).

صلى الظهر لميقاتها، والعصر لميقاتها والمغرب لميقاتها، والعشاء لميقاتها، والفجر لميقاتها، كما ثبت في الحديث الصحيح: أن جبريل ﷺ أمَّ النبي ﷺ في أول الوقت وفي آخره وقال: «**الصلاة بين هذين الوقتين**»[1] فبيّنَ ﷺ لنا الصلاة عدداً وصفةً ووقتاً، وبدون سنة الرسول ﷺ لا يمكن أن نعرف صفة الصلاة ومواقيتها، وإن كنّا عرفنا وجوبها من القرآن الكريم، مما يدلنا على أن الله وكل بيانها لنبيّه ﷺ، وهو بيان عملي وبيان قولي، ولهذا لمّا جاء جماعة من الذين ينكرون السنة من الخوارج إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ وناظروه في وجوب الاحتجاج بالسنة قال لهم عمر ﷺ: [**الله جل وعلا أمرنا بالصلاة في القرآن فكيف نصلي؟ هاتوا لي آية من القرآن تبيّن كيفية الصلاة**]، فعند ذلك انبهتوا وانقطعت حجتهم وألزمهم بوجوب الاحتجاج بالسنة.

ومثل الصلاة أيضاً: أن الله جل وعلا أمر بالزكاة في القرآن، فكيف نعرف الأموال التي تجب فيها الزكاة؟ هذه المعرفة لا تمكن

---

(١) رواه أبو داود في سننه (١/ ١٠٧/ ح٣٩٣) والترمذي في جامعه (١/ ٢٧٨/ ح١٤٩).

إلا بالسنة، وقد بين ﷺ الزكاة، وأنها تجب في الذهب والفضة والحبوب والثمار وبهيمة الأنعام وعروض التجارة، وأنها لا تجب في كل الأموال، وإنما تجب في هذه الأموال النامية التي هي الحبوب والثمار والنقدان وسائمة بهيمة الأنعام، كما بيّن ﷺ المقدار الذي يؤخذ في الزكاة، فمثلاً: في زكاة الحبوب والثمار والخارج من الأرض يؤخذ العشر أو نصف العشر بحسب المؤونة وعدمها.

ومن الذهب والفضة يؤخذ ربع العشر.

ومن الغنم في كل أربعين شاة: شاة، وهكذا بين باقي أنصبتها.

وفي الإبل بيّن ﷺ نصبها، ففي خمس من الإبل: شاة، وفي العشر: شاتان، وفي الخمس عشرة: ثلاث شياه، وفي العشرين: أربع شياه، وفي الخمس والعشرين: بنت مخاض، وفي الست والثلاثين: بنت لبون، وهكذا بين باقي نصب زكاة الإبل وما يجب فيها، كما بين أسنان الإبل الواجبة فيها، فلولا وجود السنة النبوية ما عرفنا كيف نزكي وإن كنّا عرفنا وجوب الزكاة من

القرآن، لكن السنة بينت المقادير والأموال الزكوية، كما بيّنت السنة الوقت الذي تجب فيه، إذ لا تجب الزكاة في مال حتى يحول عليه الحول إلا المعشرات؛ وهي: الخارج من الأرض فتجب فيه الزكاة إذا بدا صلاحه كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾[الأنعام:١٤١].

وكذلك أمر الله جل وعلا بصيام رمضان وهو أحد أركان الإسلام لكن لم يبين تعالى حدود الصيام، ولا مفسداته ومبطلاته، ولا الأمور التي يتجنبها الصائم، وتفاصيل هذا كله جاءت بها السنة النبوية.

وكذلك الحج إلى بيت الله الحرام؛ فقد بين تعالى وجوبه فقال: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[آل عمران:٩٧] فدلت هذه الآية على أن حج البيت واجب لكن لم تبين وقته، ولا كيفيته، وهذه المناسك كلها بينها النبي ﷺ لما حج بالناس حجة الوداع وقال: « خذوا عني مناسككم »[(١)]،

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٣٤٩/ ح١٢٩٧).

فبيّن ﷺ مناسك الحج واحدًا واحدًا، وأمر بأن نأخذها عنه ﷺ كما رواها لنا من شاهدها من فعله ﷺ.

وكذلك أمر الله جل وعلا بقطع يد السارق فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[المائدة:٣٨]...، لكن القطع له شروط لم تذكر في القرآن، وجاءت السنة ببيانها، كما بيّنت أنه لا يقطع السارق إلا إذا سرق نصاباً وهو: ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يعادلها، ولم تبين الآية اليد ولا الموضع الذي تقطع منه اليد في السرقة، لكن النّبي ﷺ بيّن هذا وأنها تقطع اليد اليمنى من مفصل الكف ويسمّى الكوع.

ولا نقصد هنا تتبع بيان السنة للقرآن باستقصاء، وإنما نذكر أمثلة لذلك، وإلا فبيان السنة للقرآن كثير.

وقد أمرنا الله جل وعلا بطاعة الرسول ﷺ، وأخبر أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠]، ومن طاعة الرسول امتثال ما يثبت عنه ﷺ من السنة والعمل بذلك، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا﴾[الحشر:٧]، فأمر الله تبارك وتعالى بأخذ كل ما آتانا الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي والتشريعات، وأن ننتهي عن كل ما نهانا الرسول ﷺ.

وجاء أمر الله جل وعلا بطاعة رسوله ﷺ بصور متعددة، فتارة يقرن الله تعالى طاعة الرسول ﷺ بطاعته كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[آل عمران:٣٢] فقرن طاعة الرسول مع طاعته ﷻ.

وتارةً يذكر ﷻ طاعة الرسول مفردةً كما في قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠] وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤].

كما أمر ﷻ عند النزاع أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لفصل النزاع، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا

ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩] والرد إلى الله هو: الرد إلى كتاب الله سبحانه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إلى شخصه ﷺ في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، والأمر بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله قائم مطلقًا إلى يوم القيامة، مما يدل على أن الرد إلى الرسول ﷺ بعد وفاته هو الرد إلى سنته ﷺ وهذا يدل على أن السنة مصدر فصل النزاع بين الأمة إذا اختلفوا في حكم من الأحكام، سواء اختلفوا في حكم ديني في عبادة من العبادات، أو اختلفوا فيما بينهم من حقوق الآدميين، والرد والفصل في ذلك هو كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ.

وهذا يدل على أن السنة قرينة القرآن، وأنها أصل من أصول الشريعة الإسلامية لا غنا بالمسلمين في وقت من الأوقات أو حالة من الحالات عنها.

وقد توعد الله سبحانه الذين يخالفون سنة النبي ﷺ بالوعيد فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الحشر:٧] فدل على أن من خالف سنة الرسول ﷺ فيما أمر به أو نهي عنه أنه معرض لعقاب الله عز وجل، وقال الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[القصص:٥٠] وقال عليه الصلاة والسلام: « كلكم يدخل الجنة إلا من أبى، فقالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟! قال ﷺ: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى »[(١)]، فالذي يعصي الرسول ﷺ ويخالف سنته قد أبى دخول الجنة، وهو متوعّد بالنار.

وقال ﷻ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور:٦٣]، وهذا وعيد شديد لمن خالف أمر الرسول ﷺ بأحد أمرين:

الأمر الأول: أن تصيبه فتنة في قلبه؛ فيزيغ عن الحق، ويكفر

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٦٥٥/ ح٦٨٥١).

بعد الإيمان، ويفسد قلبه بزيغ وضلال فلا يهتدي للحق بعد ذلك، لأنه خالف أمر الرسول ﷺ، وهذه عقوبة أشد من التي بعدها.

الأمر الثاني: في قوله تعالى: (أو عذاب أليم)، والعذاب إما أن يكون في الدنيا بالقتل، والأمراض، والهلاك الذي يحل بالكفار الذين خالفوا أمر الرسول ﷺ.

والعذاب الثاني يكون في الآخرة.

ولا مناص لمن خالف أمر الرسول متعمدًا من العقوبتين، عقوبة في القلب - والعياذ بالله - وعقوبة في البدن أو في المال إما بالموت والهلاك أو بتلف الأموال والأنفس، وهذا وعيد شديد لمن خالف أمر الرسول ﷺ.

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب:٣٦]، فهذا بيان من الله ﷻ لحال المؤمن، فهو إذ عَلِمَ حكم الله وحكم رسوله ﷺ فليس له خيار في الأمر الذي يفيد الوجوب في أن يعمل به، بل يقبله راضيًا

مطمئنًا منشرحًا صدره فرحًا به، فليس له خيار إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لأن أمر الله ورسوله كله هدى وخير، فإن لم يعمل بذلك وزعم أنه بالخيار فقد ضل ضلالاً مبينًا، والضلال ضد الهدى ووصف الضلال هنا بأنه ضلال مبين، يعني: واضح، لأنه خالف طريق الصواب، الذي هو أمر الله ورسوله ﷺ، وطريق الضلال هو: مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ.

ومما يبين عقوبة من خالف أمر الله ورسوله ﷺ حديث الرجل الذي كان يأكل بيده اليسرى فأمره النبي ﷺ أن يأكل بيمينه فقال الرجل: لا أستطيع وهو كاذب في ذلك إذ كان يستطيع لكن منعه الكبر من امتثال السنة، فقال النبي ﷺ: « لا استطعت »؛ دعا عليه ﷺ، فعند ذلك يبست يده ولم يستطع رفعها إلى فيه بعد ذلك[1] عقوبة له، فهذه عقوبة عاجلة - والعياذ بالله - فهذا دليل على أن من خالف سنة الرسول ﷺ تكبرًا أنه معرض للعقوبة والعياذ بالله.

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٩٩/ ح٢٠٢١).

وعكس هذا حديث الرجل الذي رأى النبي ﷺ في يده خاتمًا من ذهب، فقال النبي ﷺ: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في يده» ثم أخذه ﷺ وطرحه في الأرض، فلما قام النبي ﷺ من مجلسه والخاتم مطروح في الأرض وصاحبه حاضر قال الحاضرون: خذ خاتمك انتفع به، فقال هذا الرجل المؤمن: والله لا آخذه وقد طرحه رسول الله ﷺ[1]، فانظر الفرق بين الرجلين في الامتثال، فالأول يقول: لا أستطيع تكبرًا ـ والعياذ بالله ـ وهذا قال: والله لا آخذ هذا الخاتم وقد طرحه رسول الله ﷺ، فهذا الإيمان، وهذا الامتثال العظيم.

ونذكر مثالاً آخر على امتثال الصحابة لسنة الرسول ﷺ فقد كان المسلون في أول الهجرة يصلون إلى بيت المقدس بأمر الله ﷻ ثم إن الله جل وعلا أمرهم بالتوجه إلى الكعبة المشرفة فقال: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[البقرة:١٤٤] فحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة واتجه المسلمون إلى

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٥٥/ ح٢٠٩٠).

الكعبة بأمر الله ﷻ، فكانوا في الأول يصلون إلى بيت المقدس بأمر الله ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:١٤٢] فلا اعتراض على الله ﷻ، ثم نزل الأمر من السماء بتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، وكان ناس من الصحابة يصلون العصر إلى بيت المقدس لأنهم ما علموا بتحويل القبلة، فجاءهم رجل من الصحابة وهم في الصلاة وقال لهم: إنها حوّلت القبلة إلى الكعبة فما كان منهم إلا أن استداروا وهم في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة امتثالاً لأمر الله ﷻ دون اعتراض، ودون سؤال؟ وهذا هو الإيمان، فالمؤمن يمتثل ما دام ثبت أن الله أمر بهذا أو أن رسول الله ﷺ أمر بهذا، وهذا هو الواجب: الامتثال بدون اعتراض.

وأما الذين في قلوبهم مرض، أو في قلوبهم نفاق، فالله جل وعلا ذكر حالهم فقال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾[البقرة:١٤٢] فلا يبادرون إلى الامتثال بل يكثرون السؤال والاعتراض، وأهل الإيمان يمتثلون و لا يعترضون.

هذه بعض نماذج من مكانة السنة النبوية في صدور المسلمين وعملهم بها واقتناعهم بها، لأنها هي الأصل الثاني من أصول الأدلة في الإسلام، يعظمونها ويحترمونها ويوقرونها فهي كلام نبيهم الذي لا ينطق عن الهوى، ولما في امتثالها من الخير والبركة والبر للأمة، وهذه مكانة سنة النبي ﷺ في قلوب المسلمين وإن تأخر زمانهم، يعظمونها ويحترمونها ويمتثلونها كأنهم يسمعون الرسول ﷺ يتكلم بها، لأنها بَلَغَتْهم من وجه صحيح، فلا مجال للتشكّك فيها أو في مدلولها، فالمؤمن يمتثلها ويطبقها على نفسه وعلى غيره، ولهذا يقول ﷺ: « نضّر الله امرءًا سمع منّا حديثًا فبلّغه كما سمع فربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ »[1]، فرغب ﷺ بتبليغ سنته إلى من بعده من أمته إلى أن تقوم الساعة، وقال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع لما خطب خطبته العظيمة في عرفات قال:« ليبلِّغ الشاهِد منكم الغائب فربّ مبلَّغ أوعى من سامِع »[2] فأمر ﷺ

(١) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٤/ ح٢٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٧/ ح٦٧) ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٠٥/ ح١٦٧٩).

الذين حضروا وشهدوا مع الرسول ﷺ أن يبلغوا الغائبين من أمته عليه الصلاة والسلام، ولهذا كانت عناية المسلمين بسنة الرسول ﷺ وتلقيها وحفظها وضبطها عظيمة فاقت مجهود الأمم كلها، فليس في الأمم أمة اعتنت بآثار رسولها ونبيها مثل هذه الأمة المحمدية، فكانوا يحفظون السنة في صدورهم حفظًا عن ظهر قلب، ويلقنونها ويبلغونها لغيرهم، السابق يبلغ اللاحق جيلا بعد جيل، وكانوا إلى جانب حفظها وإتقانها يكتبون الأحاديث كتابة، فيحفظونها في الصدور وفي السطور، ولكن في عهد النبي ﷺ كان ينهى عن كتابة الحديث، فقال: «من كتب عني شيئا فليمحه»[1]، والغرض من ذلك أن لا يختلط الحديث بالقرآن، فكان ينهى عن كتابة الحديث لئلا يظن أنه من القرآن، ثم إنه أذن لبعض الأشخاص في الكتابة من صحابته كعبد الله بن عمرو بن العاص إذ كان يكتب ما يسمعه من النبي ﷺ، ولهذا كان عبد الله بن عمرو بن العاص من أكثر

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٨/ ح٣٠٠٤).

الصحابة رواية لأنه كان يكتب الأحاديث التي يسمعها، لكن كانت عناية المسلمين بالحفظ أشد من الكتابة، فكانوا يحفظون السنة ويتحملونها في صدورهم ويتدارسونها ويبلغونها، بل سافر أحدهم من الحجاز إلى مصر لطلب حديث واحد بلغه عند بعض الصحابة، مع بعد الشقة، لكن هذا يدل على عنايتهم بحديث الرسول ﷺ وإجلالهم وتوقيرهم له.

وبعد ذلك في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بدأ تصنيف الحديث وكتابته، ثم تطورت بعد ذلك كتابة الحديث فألفت الصحاح والمسانيد والجوامع والمعاجم لسنة النبي ﷺ، وتكونت دواوين السنة الموجودة الآن والحمد لله بأيدي المسلمين اليوم، وهذا المجهود العظيم الذي قام به حفاظ الأمة فحفظ الله تعالى بهم هذه السنة النبوية من الزيادة والنقصان وحرسوها من الوضاعين والكذابين، وألفوا فيها المؤلفات العظيمة التي لا توجد عند أمة من الأمم غير المسلمين، ووضعوا ضوابط دقيقة لقبول الرواية، وبيّنوا أحوال الكذابين

والوضّاعين، والضعفاء والمتروكين في الرواية، وهذا الحفظ للسنة هو من حفظ كتاب الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩] فكما أن الله حفظ القرآن من أن يزاد فيه أو ينقص فكذلك حفظ سنة الرسول ﷺ برواتها لأنها تبين القرآن وتوضحه وتفسره وهذا من رحمة الله بهذه الأمة حيث حفظ لها هذين المصدرين العظيمين؛ الكتاب والسنة النبوية.

ويجب الحذر من طائفة من المضللين الذين ظهر أمرهم وشرهم في هذا الزمان، يشككون في سنة الرسول ﷺ ويقولون: إن القرآن يكفينا ولا حاجة إلى السنة، ويحتجون بقول تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨] وبقوله تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل:٨٩] ، ولأن السنة بزعمهم ليست متواترة إنما رويت من طريق الآحاد ، والرواة يخشى منهم الغلط والكذب، أما القرآن فموثوق به كما يقولون فيكفي الموثوق به والثابت قطعًا ويقينًا، ونترك ما فيه شك.

هكذا يقولون ـ قبّحهم الله ـ وهؤلاء في الواقع يريدون إبطال

الشريعة لكن بطريقة خبيثة ماكرة، فهم لا يقدرون أن يقولوا للناس: اتركوا الشريعة أو اتركوا الإسلام وإنما يأتون بطريقة خبيثة شيطانية، يقولون: اعملوا بالقرآن ويكفيكم عن السنة، لأنهم يعلمون أنه إذا عطلت السنة ـ لا قدر الله ـ تعطل القرآن وبالتالي تعطلت الشريعة كلها لأن السنة ـ كما عرفنا ـ تبين القرآن فإذا أطعنا هؤلاء ـ لا قدر الله ـ ولم نعمل بالسنة، فكيف سنصلي، وكيف نصوم، وكيف نزكي، وكيف نحج، وكيف نعرف الحلال من الحرام في المعاملات وغيرها، وكيف نعرف المحرمات في الأنكحة وغيرها، وهذا لا سبيل إليه إلا بالسنة، فبهذا تتعطل الشريعة الإسلامية.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء وفضحهم من قبل أربعة عشر قرنًا فقال عليه الصلاة والسلام: «**يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يبلغه الحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، ما أحله أحللناه وما حرمه حرمناه قال عليه الصلاة والسلام: ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه**»[1]، وهذا الحديث

(١) تقدم تخريجه.

فيه معجزة عظيمة من معجزات الرسول ﷺ فقد وقع ما أخبر به ﷺ، فالنبي ﷺ حذرنا من هؤلاء وبين لنا أنه عليه الصلاة والسلام أعطي القرآن وأعطي السنة كلاهما من عند الله ﷻ كما قال الله جل وعلا: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم:٣-٤] أما ما قالوه من أن القرآن نقل بالتواتر وأنه ثابت قطعًا وأما السنة فهي ثبتت برواية آحاد الرواة ويدخلها شيء من الخلل فهي ليست كالقرآن فهذا قول باطل وحجة داحضة، لأن السنة كما بينا ما جاءت عفوًا

وليست كقصص الأدباء والخرافيين ونحوهم، بل لروايتها طرق وضوابط، ولها رجال يحفظونها ويحرسونها من عهد النبي ﷺ إلى عهدنا وإلى ما يشاء الله، والسنة محروسة، محفوظة بحفظ الله ﷻ، فليس لمتلاعب مجال في سنة الرسول ﷺ، وسبق أن حفاظ السنة بينوا أحوال كل كذاب وضعيف، وبينوا حال الثقات الذين دخل على روايتهم بعض الوهم، أو حصل لهم ما يضعف روايتهم كالمدلسين والمختلطين، فالسنة في

نفوس المسلمين أعظم من أن تنالها الأيدي الأثيمة أو أن يتناولها الكذّابون والوَضّاعون، فلا تزال والحمد لله كما رويت عن رسول الله ﷺ يتناقلها الثقات عن الثقات وهي مدونة في دواوين السنة، فبهذا يندفع تشبيه هؤلاء المشبهين والدّجّالين وتبقى سنة الرسول ﷺ صحيحة ثابتة عنه لا يتطرق إليها خلل أو شك، وهذا من فضل الله ﷻ ومنته على خلقه، ومن طعن في سنة الرسول ﷺ وزعم أنه لا يجوز العمل بها وإنما يعمل بالقرآن وحده فهذا كافر لأنه جحد الأصل الثاني من أصول الشرع وهو سنة الرسول ﷺ، وكأن حاله يقول: لا تطيعوا الرسول، بل أطيعوا الله فقط، وبالتالي هو لم يطع الله لأن الله أمر بطاعة الرسول فهو لم يطع الله ولم يطع الرسول، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم:٣-٤]، وهناك طائفة خرجت علينا الآن من المتعالمين الذين لم يتلقوا العلم عن العلماء وإنما أخذوه من الكتب وتتلمذوا على

مطابع الجريد
ت ٤١٧٠٧٥٨ - ٤٥٨٢١٣٦